# الأخـلاق فـي عصـر الحداثـة السَّـائلة

**الكاتب:** زيغمونت باومان.
**النَّاشر:** هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة.
**الصَّفحات:** 333 صفحة.
**سنة النشر:** 2016م.

مراجعة: رشا الحج حسين*

## مُقدِّمة

ألَّـف زيغمونـت باومـان (Zygmunt Bauman)، وهـو عالـم اجتمـاع بولنـديّ، كتابًا بعنـوان: «هـل للأخـلاق فرصـة في عالـم اسـتهلاكيّ؟»، وتمَّـت ترجمتـه إلى اللُّغة العربيَّـة تحـت عنـوان: «الأخـلاق في عصـر الحداثـة السَّـائلة». يُعـدُّ زيغمونـت باومـان أحـد الَّذِيـن أثـروا مفهومَيْ: «الحداثـة»، و«مـا بعـد الحداثة» مسـتبدلًا إيَّاهمـا بمفهومي: «الحداثـة الصّلبـة»، و«الحداثـة السّـائلة».

تبلـورت «الحداثـة الصّلبـة» في عصـر التّنويـر تأسيسًـا على تحـوُّلات تنامـت منـذ انتهـاء العصـور الوسـطى، و«تصلّبـت»، على حـدِّ قولـه، في عصـر العقلانيَّـة، حيـث

* ماستر تاريخ- الجامعة اللُّبنانيَّة.

الثَّبات، ووضوح المعالم والحدود. ومع «الحداثة السَّائلة» ذابت وتداخلت الحدود، وأصبح من المُمْكن الحديث عن السُّيولة في معالم المجتمع والهُويّات، وخصائص الثَّقافات والقيم الأخلاقيَّة تحت مظلَّة النّزعة الاستهلاكيَّة.

في المُقدّمة، أشار باومان إلى تجربة مجموعة باحثين درسوا الحياة الاجتِماعِيَّة لدبابير بنما، كانوا، على مدى قرون، يعتقدون «النّزعة الاجتِماعِيَّة» لدى الحشرات مقصورة على المسكن الَّذي تنتمي إليه، في حين أنّ عددًا كبيرًا من الدبابير تترك الخليَّة الَّتِي تنتمي إليها بالولادة وتنضمُّ إلى خليَّة أخرى تنتمي إليها بالاختيار. وتقوم تلك «الدبابير العاملة» بجمع الطَّعام، وتغذية المولودين محلِّيًّا تمامًا كما يفعل العمَّال المحلِّيُّون. فتبيَّن أنَّ القاعدة بين الحشرات الاجتِماعِيَّة هي سيولة العضويَّة والتّمازج الدَّائم بين السّكَّان.

اعتقد باومان أنّ محاولة إدراك الشُّؤون العالميَّة في وقتنا الحاضر بالاستعانة بأدوات مفاهيميَّة، مثل: «المركز»، و«الأطراف» لا يجدي، ولكن الاستفادة من الأدوات المطوّرة والموظّفة لدراسة دبابير بنما مناسبة أكثر. ورأى أنَّ هناك تشابهًا بين الطّريقة الَّتِي تعيش بها تلك الدبابير، وبين طريقتنا بالعيش. ففي مجتمع الحداثة السائلة، تميل الحشود، الَّتِي تجتمع وتتفرّق لأهداف مُتغيّرة ومُتحرّكة، أن تحلَّ محلّ الجماعات الَّتِي لها مركز وقادة وطبقات. ولا يربط الحشد سوى التَّماسك الآليّ الَّذِي يظهر بأنماط السُّلوك في اتّجاهٍ مُتقارب.

أشار باومان إلى تغيُّر الصُّعوبات في الوضع الإنسانيّ. ولذا؛ تحتاج إلى أن يُعبّر عنها من خلال أُطُر إدراكيَّة جديدة، وأن يتمّ تحديد الخيارات الَّتِي على الأفراد مواجهتها لتحسين الأحوال. واعتقد أنَّ لا حدود سياديَّة تستطيع بمفردها أن تحمي ظروفها المعيشيَّة وأمن سُكّانها، وأنّ اعتمادنا على بعضنا بعضًا صار عالميًّا، وكلّ ما يحدث في مكان ما يؤثّر على أماكن أخرى.

**الفصل الأول: أيّ فرصة للأخلاق في عالم استهلاكيٍّ مُعَولم؟**

في الفصل الأول، عَدَّ باومان أنَّ المبدأ الَّذي يقول: «إنّ الدَّعوة إلى أن تحبّ جارك مثلما تحبّ نفسك هو من المبادئ الأساسيَّة للحياة المُتحضّرة» مناقض للعقل المُتمثّل في مصلحة الذّات والبحث عن السَّعادة. فالّذِي يستحقُّ محبّته هو الَّذي يشبهه كثيرًا لدرجة أنَّه يحبُّ نفسه فيه، أو كان أكثر كمالًا منه وبذلك، يحب الكمال الَّذي تصبو إليه نفسه. وعلق بأنّ الوجه المضيء لذلك المبدأ معتمد على

إدراك قيمة اختلافنا واحترام بعضنا لتفرُّد كلّ أحد منّا، أمَّا الوجه المُظلم فيتمثَّل في التَّهديد الَّذي يمكن أن يُشكّله الآخر لنا.

لقد أصبح الشَّكّ بين الأفراد من السِّمات الطَّبيعيَّة للحياة البشريَّة جرّاء المشاهد التلفزيونيَّة الَّتي استولت على مُخيّلة الملايين، والَّتي تنقل بوضوح وأحيانًا بشكلٍ ضمنيّ رسالة أنّ الغرباء لا ينبغي الثّقة بهم. فالتَّمظهرات الحياتيَّة تقود نحو الارتياب والخوف من المخالطة بدلًا من أن تقود نحو الثّقة والتَّراحم.

بيّن باومان من خلال آرلي هوكستشيلد (Arlie Hochschild)، أنّ الاستهلاكيَّة تعمل للحفاظ على الانعكاس العاطفيّ بتعرُّض الأفراد إلى قصف مُتواصل من الإعلانات فيقتنعون بأنَّهم محتاجون إلى المزيد من الأشياء . ومِنْ ثَمَّ؛ يحتاجون إلى العمل لساعاتٍ أطول لتوفير المال. ولكي يُعوّضوا غيابهم عن المنزل يشترون الهدايا المكلفة. وبذلك، يقومون بـ «تمدية الحُب»؛ أي جعل الحُبّ ماديًّا، وتستمرُّ الدَّورة.

في مجتمع مُعَوْلم من المستهلكين، يؤكد باومان من المُحتّم أن يؤثّر السُّلوك الاستهلاكيّ في كلّ وجوه الحياة ومنها الحياة الأُسَريَّة. واستشهد بكولن كامبل (Colin Campbell)، الَّذي يرى أنَّ النَّشاط الاستهلاكيّ «أصبح قالبًا، أو أنموذجًا للطَّريقة الَّتي ينظر بها المواطنون الآن في المجتمعات الغربيَّة إلى جميع مناشطهم ... الميتافيزيقا الضّمنيَّة للنّزعة الاستهلاكيَّة صارت في أثناء ذلك نوعًا من الفلسفة التّلقائيَّة لكلّ الحياة الحديثة».

أشار باومان إلى أنّه بإمكاننا أن نفعل أيّ شيء مجتمعين؛ كي نخفّف من مصير أيّ إنسان يعاني من الإهانة، أو البؤس، أو الألم ضمن مجتمعنا المعولم، وإلّا لن نتأكّد من براءتنا الأخلاقيَّة. ورأى أنَّ التجارة أصبحت خالية من أيّ همٍّ أخلاقيّ، أو قيود قانونيَّة، وخاضعة لقانون السُّلوك الخاص بالتجارة وحدها، فيمكنها أن تمضي نحو أهدافها، وتتجاهل الجميع.

**الفصل الثَّاني: القتل الباتر، أو إرث القرن العشرين وكيف نتذكّره**

في الفصل الثَّاني، ذكر باومان أنّ الحالة الطَّبيعيَّة للبشريَّة مُتمثّلة بحرب الجميع ضدَّ الجميع، وأنَّه يمكن التَّخلُّص من ذلك الميل من خلال عمليَّة التَّحضُّر. واعتقد أنَّ تصوُّر الإبادة الجماعيَّة في إطار المجتمع الحديث لا يكون من دون مخترعات حديثة كالتّقنية الصِّناعيَّة، والبيروقراطيَّة، والتَّراتُبيَّة الصَّارمة للأوامر

والانضباط، وتحييد القناعات الشَّخصيَّة والأخلاقيَّة. وبيّن أنَّ ما تختلف به الإبادة الجماعيَّة عن أكثر الصِّراعات عنفًا ووحشيَّة ليس بعدد الضَّحايا؛ وإنّما بطبيعتها الفرديَّة.

ففي الإبادة الجماعيَّة، أو «القتل الباتر» يكون الهدف مُحدَّد من طرف واحد وليس هناك حقّ للرَّدِّ. وتلصق النَّوايا الشِّرِّيرة بالضَّحايا الَّذين لا أمل لهم في الاستئناف. ويعيش الأقوى؛ لأنَّه ينجو من العقاب مهما كان ما فعله بالضَّعيف. ويتمُّ إقناع الرَّأي العامّ أنَّ المُمَارسات السَّيِّئة لسياسات القوَّة عبارة عن تضحيةٍ نبيلةٍ بالذَّات.

لقد صمّم «المجتمع الأكبر» ليحلَّ محلّ تجمُّع الأنظمة المحلِّيَّة الَّتي لا تزيد عمليًّا عن كونها مُتشكلةً ذاتيًّا، وتبقى بعض فئات السُّكّان مُصنَّفة على أنَّها «زائدة عن الحاجة»، ليس لها مكان في النِّظام المُستقبليّ المبنيّ على أُسُس عقلانيَّة. وبإزالة كلّ شيء غير مُلائم وغير مُنسجم يُخلق النّظام ويُعاد إنتاجه. فالحقبة الحديثة، لا سيَّما حقبة الحداثة السَّائلة، هي مرحلة بناء جماعيّ مُكثَّف وغير حاسم، تشجّع على أنواع خاصَّة بها من «القتل الباتر».

**الفصل الثالث: الحرِّيَّة في حقبة الحداثة السائلة**

في الفصل الثالث، اعتقد باومان أنّ الاحتفاظ بالماضي يؤدّي دورًا حيويًّا في تشكيل الحاضر بالنِّسبة إلى الفرد والجماعة. فالجماعات الَّتي تفقد ذاكرتها تفقد هُويّتها، وفقدان الماضي يؤدِّي بالضَّرورة إلى فقدان الحاضر والمستقبل. فالحفاظ على الجماعة، بما هي قيمة يجب الدِّفاع عنها وتقديرها، يُحتّم السَّعي إلى إبقاء الذَّاكرة حيَّة.

تحدّث باومان عن التَّصميم الإنسانيّ ليكون التَّاريخ تحت إدارة وسيطرة بشريَّة بالاعتماد على العقل لكونه أقوى أسلحة الإنسان. وبيّن أنّ الزمن يرفض بعناد أن يبقى في قاع النّهر الَّذي نحته العقل، فهو مُهيَّأ لتحطيم أيَّ قالب فكريٍّ يفترض أن يظلّ فيه، ولا خريطة رسمت، أو يحتمل أن ترسم لتبيّن مساره، ولا بحيرة اسمها المجتمع المثالي عند نهاية تدفُّق النّهر، إذا كان هناك نهاية لتدفُّقه.

اعتقد أنّ إنتاجيَّة المجتمع تُقاس بالأمان وبالثّقة بالنّفس الَّتي يمتلكها أضعف أجزائه. وإنّه إذا كانت الحقوق السِّياسيَّة ضروريَّة لجعل الحقوق الاجتِماعِيَّة مُتحقّقة، فإنّ الحقوق الاجتِماعِيَّة لا غنى عنها للاحتفاظ بالحقوق السِّياسِيَّة. كما أشار إلى أنّ

البلاد الَّتِي تتمتَّع بمبادئ ومؤسَّسات كيان اجتماعيّ راسخة في مجتمع المستهلكين تتمتَّع فعلًا بمستويات عالية ومدهشة من الاستهلاك.

**الفصل الرابع: حياة عجولة: تحدِّيات الحداثة السَّائلة للتعليم**

في الفصل الرابع، ذكر باومان أنَّ المجتمع الاستهلاكيّ يُصوّر الإلزام بالاختيار على أنّه حرِّيَّة الاختيار، فيظهر التقليل من أهمِّيَّة حاجات الأمس والحطّ من شأنها، ولا يتوقّف عن توليد الحاجات؛ لأنّ الاقتصاد الاستهلاكيّ يدوم بتقليب البضائع. وأشار إلى أنّ الحياة الاستهلاكيَّة هي حياة من التَّعلُّم والنسيان السَّريعين، وبقدر ما يكون التعلُّم مهمًّا يكون النسيان كذلك إن لم يكن أكثر. ولأجل أن يُعيد النّظام إنتاج نفسه بنجاح يدفع الأفراد أن يفعلوا ما يريدهم أن يفعلوه من خلال التعبئة الرُّوحيَّة والتثقيف المدنيّ والتّلقين الأيديولوجيّ؛ أي يتمّ تحويل الشُّروط الوظيفيَّة إلى دوافع سلوكيَّة للأفراد. وأولئك الَّذِين يشترون فقط ما يؤمنون أنهم بحاجة إليه يُعدّون مستهلكين ناقصين منبوذين اجتماعيًّا.

بيّن باومان من خلال توماس إريكسن (Thomas Hylland Eriksen)، أنَّ من سمات المجتمع المعاصر طُغيان اللَّحظة، وعواقب العجالة المفرطة ساحقة؛ إذ يخضع كل من الماضي والمستقبل بوصفهما فئتين ذهنيَّتين إلى طغيان اللَّحظة، حتى إنّ اللَّحظة القادمة تحلُّ بسرعة؛ بحيث يصعب العيش في الحاضر.

أكَّد باومان الحاجة إلى التَّعلُّم والتثقيف باستمرار، فالجهل يؤدِّي إلى شلّ الإرادة. ولا بُدَّ للجميع من تحديث معارفهم المهنيَّة واستيعاب المعلومات التقنيَّة الجديدة لتجنُّب التَّخلُّف عن الركب في عالم التَّقدُّم التّقنيّ. ولا يمكن للسِّياسة الديمقراطيَّة أن تصمد طويلًا أمام سلبيَّة المواطنين نتيجة للجهل السِّياسيّ وفتوره، وتضاؤل الاهتمام باكتساب المهارات الاجتِماعِيَّة.

**الفصل الخامس: بين الرّمضاء والنّار، أو الفنون بين الإدارة والأسواق**

في الفصل الخامس، أشار باومان إلى أنّ الفنّانين يظهرون سمات ذلك العصر كسيلان الوقت، وتحديد جودة الاستمرار وفقًا لسرعة الزوال، وإلغاء التَّضادّ بين الأفعال البنّاءة والهدّامة من خلال لوحاتهم الفنِّيَّة. ولكن في عالم لم يعد يثق بالجلوس لمرحلةٍ كافية تُتيح للفنّان إنهاء رسمه، هناك نوع من النّزوع نحو تقليص المدى العمريّ للإنتاج الفنّيّ إلى عرض أو حدث، وبالمدى الوقتيّ القصير بين افتتاح معرض ما وتفكيكه فإنهائه.

اعتقد باومان أنّ هناك أسبابًا عدّة ليتبادل الحُكّام والفنون الكراهية. الفنون المنهمكة في تخطيط البدائل المُتخيّلة للوضع الرّاهن، في تنافس، طوعًا أو قسرًا، مع الحكّام الّذين تعد سيطرتهم على السُّلوك الإنسانيّ محاولة للسَّيطرة على المستقبل.

رأى باومان أنّ الكمال يعني أنّ على التّغيير أن ينتهي، ولن يكون هنالك تغيير بعد ذلك. وما هو كامل لن يفقد قيمته أبدًا، ولن يصبح فائضًا عن الحاجة، ولن يتحوَّل إلى مُخلّفات. وحين نصبو للكمال علينا أن نوسع خيالنا إلى أقصى مدى لنشر كلّ طاقتنا الإبداعيَّة.

**الفصل السادس: جعل الكوكب مضيافًا لأوروبا**

في الفصل السّادس، بعنوان: «جعل الكوكب مضيافًا لأوروبا»، بيّن باومان أنّ أوروبا حاولت أن تحلَّ المشاكل المحلِّيَّة الَّتي أنتجها أسلوب حياة الحداثة، من خلال تحويل أجزاء العالم إلى مصادر للطّاقة والمعادن الرخيصة، وإلى عمالة غير مكلفة ومطيعة، وإلى أماكن للتَّخلُّص من منتجاتها الزَّائدة.

لقد فقدت أوروبا هيمنتها الاقتصاديَّة والعسكريَّة نتيجة لنهوض الولايات المُتَّحدة إلى موقع القُوَّة العظمى، كما هو شائع. ولكن باومان يشكُّ أنّ الولايات المتَّحدة فعلًا «إمبراطوريَّة العالم» بالمعنى الَّذي منحته أوروبا لمفهوم الإمبراطوريَّة من خلال ممارستها في الماضي، فالانتشار النَّوويّ غير قابلٍ للإيقاف، والعجز الوطنيّ (الأميركيّ) والتّجاريّ هائل، ومساحات الفوضى، الَّتي يتدرّب عليها الإرهاب العالميّ، اتَّسعت بدلًا من أن تتضاءل مع انتشار القوَّة العسكريَّة الأميركيَّة.

اعتقد باومان في الفصل الأخير من كتابه، وبعد فُقْدان أوروبا المُفاجئ لثقتها بنفسها، أنّ هناك مصلحةً مُلحّةً لتحديد هُويَّة أوروبا الجديدة، ودورها الجديد في اللُّعبة الكوكبيَّة الَّتي تغيَّرت قواعدها على نحوٍ جذريٍّ. وإنَّ منطق المسؤوليَّة العالميَّة والحلم العالميّ، إذا اعتمد ومنح الأفضليَّة على منطق التَّحصين المحلِّيّ، قد يساعد في إعداد الأوروبيِّين لمغامرتهم المقبلة الأكبر ربما من سابقتها.